المعرى والمرأة

أبا العلاء ! هل كان يخطر ببالك أن تشترك امرأة في تقديرك وتكريمك ؟ أما تعجب ياعدو المرأة الجبار أن تقف امرأة الآن تفخر بك وتشيد بمآثرك ؟ اما تستغرب فيلسوف المعرة أن أقف اليوم لأعيد ماسطرته قريحتك الناقمة الفياضة من الطعن واللذع والحط من قيمتنا نحن معشر النساء ؟

ألست أنت القائل :

ألا إن النساء حبال غي ... بهن يضيع الشرف التليد

وهل تنكر قولك :

أتت خنساء مكة كالثريا ... وخلت في المواطن فرقديها

ولو صلت بمنزلها وصامت ... لالفت ماتحاوله لديها

وهل نسيت قولك :

ودفن والحوادث فاجعات ... لاحداهن احدى المكرمات

وقولك :

ودفن الغانيات لهن أوفى ... من الكلل المنيعة والخدور

بابالك أبا العلاء تسرف في تجريح المرأة فتراها شيطانة غي تجرر وراءها الفتنة حيث سارت وحيثما حلت وانى هبطت حتى ولو كانت في مكان من أقدس الاقداس .

وما الذي حدا بك حتى اوسعتها ذماً وتقريعاً ورغبت في دفنها وسلبها نعيم الحياة وعهدها بك تمقت القسوة والظلم فهل اعتقدت استحالة اصلاحها ؟ وليس عجيباً أن تشترك المرأة في احياء ذكراك وتكريم آثارك الخالدة بعد أن تناولتها بلسان لاذع وقول قارس لأن ظلمك الناس لم يكن مقتصراً على المرأة فحسب بل تناولت الرجل أيضاً بنصيب وافر من النقد والتشنيع إذ قلت :

فأفٍ لعصريهم نهار وحندس ... وجنسي رجال منهم ونساء

فكنت إذا تحدثت عن الحاكم نعته بالظلم وعن الولد رميته بالعقوق وعن

الصديق وصفته بالختل والغدر وقد شككت بكل شيء حتى في القدرة الالهية فلا عجب إن شككت بعد هذا ، وكان حقاً عليك أن تنقلها الى جحيمك فتصليها بناره وتحرقها بأواره . ولكن المرأة المستضعفة في نظر الناس استطاعت أن تصمد أمام حملات طائشة مغرضة وأن تبقى أمد الدهر موئل الرجل وملاذه .

وأنا زعيمة بأن الرجل الذي يكثر من التحدث عن المرأة نقداً وتجريحاً ، قذفاً وتشويهاً انما هو اقرب الرجال الى المرأة واشدهم حبألها وايثاراً لأن من أحب الشيء اكثر من التحدث عنه .

سيداتي سادتي عاش أبو العلاء في عصر زهده في الحياة ورغبه عنها وملأ نفسه سوء ظن بها ، عصر فتنة واضطراب عصر ضج بالظلم والزور والبهتان ، عصر عم فيه الفساد ونزرت العصمة ، عصر غمره الفجور فسادت فيه الإباحية الخلقيـة وهوت الحياة الاجتماعيـة الى أحط لدركات فتفسخت الأسـرة وعمت الفوضى ففضلت الاماء على الحرائر وتكونت لدى شيخنا المعري النواة الأولى لنسيجه الفلسفي التشاؤمي حتى صب نقمته على المرأة وعلى الحياة لابل على الوجود أجمع حتى أنه لم يستثن ذم نفسه حيث قال :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لامحالة أبدأ

لاشك في أن الآلام التي بلاها في حياته جسدية أو روحية كانت العامل الأكبر في تشاؤمه وزهده في الحياة ، ففقدان بصره وحرمانه من عطف امرأة تحدب عليه وتحن إليه تشاركه آلام الحياة وتصور له مباهجها تخلق له جواً سعيداً يسهل لديه اسباب العيش ويحبب إليه البقاء تلك أسباب حملته أن يركب هذا المركب الساخط الصاخب على الحياة .

اجل لم يحظ أبو العلاء بعطف امرأة في حياته ولعله أصابه أذاها فمنعه كبرياؤه من ذكر هذا الأذى فنقم عليها نقمة الملتاع وأطلق لسانه في ذمها .

من يدري لو أن حكيم المعرة هذا لاقى حناناً واشفاقاً من شريكة أو اخت أو ابنة لما ضن عليها بوفاء أو ثناء ولكف عن ذمها وأخمد من نار عدوانه لها وحقده عليها . على أن شذوذه حمله على التناقض في رأيه فبينما نراه يطعن بالمرأة ويصب عليها اللعنات نراه يشفق عليها وينكر تعدد الزوجات وينسى عداوته حين يذكر المرأة الأم بقوله :

العيش ماضٍ فأكرم والديك به والأم أولى بإكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه مران بالفضل نالا كل إنسان

تلك الأم التي عد نعيها اكبر صدمة من صدمات الدهر أتم بها بناء بيته المظلم من الحزن الذي لزمه طيلة حياته ففاضت شاعريته برثائها بقصيدتين مفعمتين بالزفرات الحارة التي كان يصعدها بعد وفاتها .

سيداتي سادتي لو كنا جميعاً معشر النساء والرجال في عصر أبي العلاء وتوالت علينا مصائبه وويلاته لاشتركنا معه في وضع المرأة بأحط منزلة في ذمة التاريخ .

ولو شهد فيلسوف المعرة عصرنا هذا عصراً اشتركت فيه المرأة مع الرجل في العلم والأدب والفلسفة عصراً برهنت فيه أنها مبعث إلهام الرجل وموقظ القوى الخامدة فيه ، عصراً شعر الرجل فيه أنه بجانب شريكة تبادله الرأي وتشاطره آلام الحياة وافراحها ، عصراً ظهرت فيه دائبة لاتمل متحركة لاتسكن نشيطة لاتفتر ولجت ابواب العلم وضحت بكل غالٍ وثمين لكشف النقاب عن أعظم سر من اسرار الوجود خلص البشرية من أكبر الآفات ، عصراً قطعت فيه السنة من كانوا يصمونها بالضعف بما خلدته من المآثر العلمية والأدبية .

لو شهد المعري هذا العصر لغير رأيه في المرأة فما آذى شعورها ولا جرح إحساسها وقدسها أجل تقديس ونالت من نفسه مكانها الأسمى ولسكن الى زوج جعلت من نفسه المتشائمة المظلمة نفساً مشرقة متفائلة تريه السعادة في الشباب والهرم في الغنى والفقر في الصحة والمرض وتنير الناحية المظلمة من آرائه وافكاره ، وتترجم خلجات نفسه ووحي شعوره وتكشف النقاب عن الكثير من كنوز اسراره .

لك العذر أبا العلاء لأن المرأة لاتعدم في كل عصر عدواً لها يرى في كل عمل من أعمالها نقصاً وفي كل حركة من حركاتها عيباً ولكن المرأة يذكي نشاطها النقد ويقوي حركتها التهجم ونحن مهيئات انفسنا لاقتحام كل صعب وتخطي كل حاجز بعزيمة لاتخور وهمة لاتفتر .

جبران الموصلي
مندوبة الندوة الثقافية النسوية